# الاسكندر ذو القرنين

## ٣

ختمنا الفصل الاول بما جرى لفيلبس وقت الاحتفال بزفاف ابنته الى ملك ابيروس اخي زوجته الاولى . والذي طعنهُ رجل مكدوني من خرصه الخاص اسمهُ بوسانياس . وسبب ذلك ان اتالوس عم كليوباترا زوجة فيلبس الثانية اساء الى بوسانياس فشكاهُ الى فيلبس فلم يصغ فيلبس الى شكواهُ فانصرف غضب بوسانياس اليهِ وعزم على الايقاع بهِ انتقاماً منهُ ورغبة في الشهرة ولو في الحرام فقيل انهُ سأل هرمكراتوس الصوفي يوماً "كيف يشتهر الانسان" فقال لهُ "بقتله رجلاً شهيراً" . وكان اتالوس وكليوباترا وفيلبس قد صاروا واحداً في عينيهِ فقال في نفسهِ ان انا قتلت فيلبس قهرت اتالوس وجعلت كليوباترا تحت رحمة اوليمپياس (ام الاسكندر)

ولما كان يوم المهرجان الكبير خرج فيلبس لابساً وشاحاً ابيض وسار في صدر الجمع غير موجس شراً لانهُ لم يكن يرَ غير البهجة والسرور على وجوه الجموع المزدحمة . ولم يكد يبلغ باب المشهد حتى هجم عليهِ بوسانياس وطعنهُ في ظهرهِ فالقاهُ صريعاً ووثب على ظهر جوادهِ وفرَّ هارباً . وجدَّ الحراس في اثرهِ فادركوهُ وتتلوهُ ولكن قتلهُ لم يغنِ عن فيلبس شيئاً لان الطعنة كانت قاتلة فمات في السابعة والاربعين من عمرهِ والرابعة والعشرين من ملكهِ

وكثرت الاشاعات على اثر ذلك فمن قائل ان اوليمپياس دست عليهِ من يقتلهُ ومن قائل ان الاسكندر هو هذا الذي حرَّض القاتل على قتلهِ . والحقيقة ما تقدَّم لكن اوليمپياس سرَّت بما حدث لانها كانت حاقدة على كليوباترا واتالوس وكانت تتحيَّن الفرص للانتقام منهما . اما الاسكندر فكان بريئاً مما اتُّهم بهِ كما تدلُّ شواهد الحال . ومهما يكن من امرهِ وامر امهِ فان موت ابيهِ حينئذٍ جعل الاكثيرين يحسبون ان المملكة ماتت معهُ لان الاسكندر كان فتىً صغير السن قليل الخبرة . او انهُ لا يبقى لهُ منها الاَّ ما ورثهُ ابوهُ وامه البلدان التي فتحها واضافها الى مملكتهِ فيعود اليها استقلالها . وما ورثهُ ابوهُ لم يكن انتقالهُ اليهِ امراً محتوماً لانهُ وُلد لهُ ولد آخر من زوجتهِ كليوباترا قبل وفاتهِ بايام وهي مكدونية كما تقدم ولها حزب كبير يطلب اختصاص الملك باولادها . وعمها اتالوس من اعظم قواد الجيش المكدوني وكان مع جميع برمنيون في قيادة الجيش بامريا الصغرى والاثنان مستعدان للانتصار لها . وكان هناك حزب ثالث يرى تنصيب استاس ابن اخي فيلبس الاكبر وحزب ثالث يريد الرجوع الى بيت ليفستوس الذي كان الملك لهُ في اوائل ذلك القرن . وكان الجمهور يكره ما احدثهُ فيلبس من اقتباس

اساليب اليونان والاعتضاد بهم فيميل الى كل حزب يخالف الاسكندر ولاسيما الى ابن كليوباترا لانهُ مكدوني بحت كما تقدَّم . وشأن المكدونيين في ذلك شأن كل امة تغار من تقريب ملوكها للغرباء

الآن الاسكندر ادرك ذلك كلهُ بعينهِ الثاقبة فلم يهمل خصومهُ حتى يجمعوا امرهم وينهضوا لمقاومتهِ بل قتل الاميرين اللذين ظن انهما ينازعانهِ الملك وبعث برجل من اخصائهِ اسمهُ هكاتيوس الى آسيا الصغرى ليقبض على اتالوس عمّ كليوباترا ويأتيهُ بهِ حيًّا او ميتًا . وكان الاثينيون قد بعثوا الى اتالوس لينهض على الاسكندر ووعدوهُ بالمظاهرة وكتب اليهِ ديموستنس الخطيب الشهير يحثهُ على اخذ البيعة لانتاس ابن عم الاسكندر. ورأى اتالوس ان يرميون حماهُ لا يوافقهُ على ذلك وان نجم الاسكندر اسمى من ان يعتريهُ افول فبعث اليهِ بكتاب ديموستنس قائلاً انهُ لا ينقض ولاءهُ لهُ . وكان هكاتيوس قد مضى للقبض على اتالوس كما تقدَّم فاودى بهِ قبل ان يرسل اليهِ الاسكندر من يصرفهُ عن قتلهِ واتبع بذوي قرباهُ كلهم بخلا الجو للاسكندر ولم يبقَ لهُ منازع . وكان الاسكندر من الافراد الذين يعدون الفشل مقدمة للنجاح فترك الصغائر واهتم بالكبائر . وبادر الى بلاد اليونان حالاً لكي يفوز عليها فيتمهد لهُ سبيل الفوز على المكونة كلها او تفوز عليهِ فيزول مع من زال قبلهُ . وكانت المدن اليونانية قد شقَّت عصا الطاعة للمكدونيين حالما بلغها موت فيلبس . ويقال انهُ لما بلغ خبر موتهِ ديموستنس خلع ثياب الحداد لانهُ كان حادًّا على ابنتهِ ولبس ثيابًا بيضاء ووضع اكليلاً من الازهار على راسهِ وادَّعى ان الآلهة كاشفتهُ بالخبر في حلم ثم خطب في الجمع خطبة زعم فيها ان الاسكندر فتى غض الشباب لا يجسر على الخروج من عاصمة بلادهِ وطلب ان يعدَّ بوسانياس قاتل فيلبس من المحسنين للوطن وان يقدَّم الشكر للآلهة على ما انعمت بهِ عليهم

لكن الاسكندر اقتحم بلاد اليونان فجأة بخمسة وعشرين الفًا من الابطال المكدونيين وكان فيلبس قد عوَّدهم المشاق ودرَّبهم على السير خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم. فقبل ان ينقطع صدى الشكر في مجلس اثينا كان هذا الجيش الجرار على ابواب لارسا في شماليا فلم يقاومهُ الثساليون بل انضم فرسانهم الى جندهِ فسار جنوبًا الى مضيق ترموبيلي وهو باب بلاد اليونان الوسطى ونزل امام طيبة على الطريق الموصلة منها الى اثينا وبلغ الاثينيين ذلك فذعروا ورأوا ان لا قبَل لهم بهِ فاجتمع رؤساؤهم واشاروا بمصالحتهِ قبل ان يتسع الخرق على الراقع فانتدبوا اليهِ وفدًا يطلبون منهُ الصفح عما بدا منهم ويعدونهُ بالطاعة فاجابهم الى طلبهم وابقى لهم امتيازاتهم التي كانت لهم في ايام ابيهِ. وفعل مثل ذلك بغيرهم من سكان المدن اليونانية

فلما عاد الوفد الى اثينا اجتمع الاثينيون واقروا على اهداء اكليلين من الذهب الى الاسكندر وتلتيبه بالمنعم على مدينتهم

فخضعت كل بلاد اليونان لهُ وبعثت نوابها الى كورنثس لتجدد لهُ العهود التي عقدتها مع ابيهِ الاَّ اسبرطة فانها لما دعي اهلها الى الاشتراك في المجمع العام اجابوا ليس من عادتنا ان نتبع غيرنا بل ان يتبعنا غيرنا وكانت قد صارت بلدة حقيرة فاغضى الاسكندر عنها اغضاء الكرام

وكان ابوهُ قد اعدَّ المعدات لغزوة المشرق لكي يتمكن عرى الارتباط بين اجزاء مملكتهِ لانهُ ما من شيء يؤلف بين احزاب الامة مثل اشتراكها في محاربة غيرها اما هو فكان يرمي الى ابعد من هذا الغرض لانهُ كان يقصد امتلاك المسكونة واخضاعها كلها للسلطة اليونانية والآداب اليونانية ولذلك اصلح ذات البين بينهُ وبين اليونانيين اولاً لكي يكونوا لهُ ظهراء على ما يريد

ويروى انهُ لما وصل الى كورنثس جاءهُ عظماؤها للتسليم عليهِ الاَّ ديوجنس الفيلسوف الكلبي (الزاهد) واراد الاسكندر ان يراهُ فمضى اليهِ بنفسهِ مع حاشيتهِ فرآهُ جالساً يتشمس في ساحة المدرسة فعرَّفهُ بنفسهِ قائلاً انا الاسكندر الملك فقال ديوجنس وانا ديوجنس الزاهد ولم يزد فقال الاسكندر هل لك طلبة فاقضيها لك قال ان تحيد من شمسي انك وجاهك. فعجب الاسكندر من جوابهِ وزاد توقيرًا لهُ وقال لو لم اكن الاسكندر لوددت ان اكون ديوجنس

ومضى من هناك الى دلفي ورأى كاهنة ذلك المعبد فذعرت منهُ لكنهُ امسك يدها وجرَّها الى مجلس النبوَّة لكي تنبئهُ بما يكون من امرهِ وكانت النبوءات قد بطلت منذ مدَّة طويلة فقالت لهُ "يا بنيَّ انك غالب" فاخذ كلامها نبوَّة بتغلبهِ على المسكونة

ثم عاد الى كورنثس ليقضي فصل الشتاء فوجد امهُ قد انتقمت من كليوباترا زوجة ابيهِ انتقاماً فظيعاً فقتلت طفلها بين ذراعيها واجبرتها على قتل نفسها بيديها وهذا منتهى الفظاعة فساءهُ ذلك جدًّا ولكنهُ اضطرَّ ان يغضي عنهُ

ولما انقضى فصل الشتاء ودخل الربيع قام بجيوشهِ واتجه نحو البلقان والدانيوب واستعدَّ لعبور مضيق شبكا المشهور بين الرومللي الشرقية والبلغار فلقيهُ التراسيون هناك وهم اقوام اشداء من اهالي تلك البلاد وكانوا متحصنين في معاقلهم وعازمين على صدهِ. وجمعوا مركباتهم ووضعوها امامهم كالمتاريس وقالوا ان هو ابى الاَّ الصعود على هذا الجبل دامنا المركبات عليهِ فتقع بثقلها

وتدحر جنودهُ دحرًا . وعرف الاسكندر منهم ذلك فامر جنودهُ ان يوسعوا المركبات اذا رأوها منحدرة عليهم وان لم يستطيعوا التوسيع لها لضيق الشِّعب فعليهم ان يناموا على الارض ويضعوا تروسهم فوق رؤوسهم ويوصلوها بعضها ببعض حتى يصير منها سطح واحد فان المركبات تمرُّ فوقها حينئذٍ ولا يناله منها اذىً . ففعلوا كذلك وانحدرت المركبات ومرَّت فوقهم كما تمر فوق الصخر الصلد فزادت بسالتهم وجرأتهم لانهم كانوا قد هابوا تلك المركبات كثيرًا . وقتل من التراسيين الف وخمس مئة نفس ونجا الباقون فرارًا

وظلَّ الاسكندر سائرًا الى ان بلغ الدانيوب فلما وقعت عينهُ عليهِ ودَّ ان يعبرهُ لكي تقع مهابتهُ في نفوس قبائل الشمال التي وراءهُ ومنها قبيلة الجواتي القاطنين البلاد المعروفة الآن ببلاد رومانيا وهم اهل بأس ونجدة وكانوا قد اجتمعوا على الضفَّة المقابلة ليصدوهُ عن العبور اليهم اذا حاول ذلك . وكان للكدونيين سفن في البحر الاسود فاتتهُ وصنع ارماثًا والقى في النهر زقاقًا منفوخة فعبر بها الف وخمس مئة فارس من جنودهِ واربعة آلاف راجل عبروا في ليلة واحدة تحت جنح الدجى فلما نهض الجواتي ورأوهم امامهم بهتوا واركنوا الى الفرار ولجأوا الى مدينتهم وهي على ثلاثة اميال من النهر ثم رأوا انها لا تقيهم من الاسكندر فاحتملوا نساءهم واولادهم على خيولهم ولجأوا الى القفار البعيدة . فلم يقتفِ الاسكندر خطواتهم بل عاد بجنودهِ الى الضفة الجنوبية وجاءتهُ الوفود من البلدان المجاورة يؤدون لهُ الطاعة ويتطوعون في خدمتهِ ومنهم السلت او المجار الذين اشتهر امرهم بعد حين لما دوخوا اسيا الصغرى وبلغوا بلاد غوسا وانكاترا ولم تزل آثار لغتهم في ارلندا واسكتلندا وبلاد وايلس

قال اريانوس المؤرخ ولما رأى الاسكندر هؤلاء الاقوام من بلاد المجار البعيدة ظن ان هيبتهُ اتت بهم اليهِ فسألهم قائلاً من اي شيء تخافون وهو يحسب انهم يقولون انا نخاف منك فقالوا انا نخاف من هبوط السماء علينا . فاحسن وفادتهم وقال لهم انتم اصدقائي وحلفائي وصرفهم ولكنهُ بقي يقول انهم اهل دعوى وخيلاء

ثم عاد الى بلادهِ واختار طريقًا غربية ومرَّ بقرب المكان الذي بنيت فيهِ مدينة صوفيا عاصمة البلغار الآن وبلغهُ ان بعض القبائل التي اخضعها ابوهُ شقت عصا الطاعة فبادر اليها وحاربها وكاد يُقهر مرة ويقضي عليهِ لانهُ حُصر بين فريقين من الاعداء لكنهُ تخلص منهما ووقع بهما واكتسح البلاد كلها وادَّب اهل العصيان . غير ان الاخبار وصلت الى اثينا انهُ قُتل في تلك المعارك وتمزَّق شمل جيوشهِ . ويقال ان ديموستنس اتى برجل جريح شهد امام الاثينيين ان الاسكندر قُتل في حربهِ مع التربالليين وانهُ هو رأى جثتهُ بعينهِ فذاعت هذه

الاخبار في بلاد اليونان ومكدونية . وكان الفرس قد بلغهم قيام الاسكندر وانضمام اليونان اليهِ فاوجسوا شرًّا وبعثوا بجنودهم الى اسيا الصغرى فتغلبت على الجنود المكدونية والجأت فريقًا منها ان يعود الى اوربا . وكان داريوس ملك الفرس يعلم مواقع الضعف من زعماء اليونان وان الدينار يفعل بهم ما لا يفعلهُ السيف فبعث اليهم بالاموال الطائلة يرشيهم بها او يساعدهم على التأهب لمناهضة الاسكندر ويقال ان اسبرطة فقط قبلت الاموال منهُ وقبلها ايضًا بعض رؤساء الاحزاب والى ذلك اشار الاسكندر في كتابهِ اليهِ بعد واقعة اسوس حيث قال " وانك بعثت المال الى اللاسيديمونيين [1] فلما رأيتُ رجالك قد رشوا اصدقائي وحاولوا ابطال المحالفة التي بين شعوب اليونان خرجتُ لقتالك لانك انت بلدأتني بالعدوان "

ومن المقرر ان ديموستنس اخذ من داريوس ثلثمئة وزنة ( اي سبعين الف جنيه ) لينفقها كيف شاء فابقى منها لنفسهِ ما يساوي ستة عشر الفًا من الجنيهات على ما قيل ووزع الباقي على مدن اليونان لتنفقهُ على القواد والمستزرقة في سبيل الدفاع عن الوطن . والناس الى عهد قريب لم يكونوا يفرقون بين المال العمومي الذي ينفق في مصلحة الامة والمال الخصوصي الذي ينفقهُ رؤساؤها على انفسهم ولذلك لا يستغرب ما فعلهُ ديموستنس في عصرهِ ولا يلام ايضًا على استعانتهِ بالفرس لان خضوع اليونان للمكدونيين لم يكن بالامر السهل عليهِ اذا وجد الى اطراح ذيرهم سبيلاً . وقد ذكر فلوطرخس ان الاسكندر وجد بعد ذلك كتبًا من ديموستنس في سرديس بعث بها الى مرزبان الفرس واشار فيها الى الاموال التي وصلت اليهِ فكان مجاهرًا بقيامهِ على الاسكندر وحمل بلاد اليونان كلها على شق عصا الطاعة لهُ حتى اذا بلغهُ موت الاسكندر صدَّق الخبر واذاعهُ في طول البلاد وعرضها

وكان في طيبة حامية من المكدونيين محتلة حصنها وكان قوم من اهلها منفيين في اثينا فعادوا اليها لما بلغهم موت الاسكندر واذاعوا الخبر فيها وحرَّضوا اهلها على العصيان وقبضوا على رجل مكدوني ورجل آخر يوناني من حزب المكدونيين وقتلوهما وسار معهم جم غفير من الاهالي وهم ينادون بالاستقلال وطردوا رجال الحكومة من مناصبهم واختاروا رجالاً جعلوهم مجلس شورى لادارة الاحكام واتجهوا الى المدينة شرائعها القديمة واقاموا الاسوار حول الحصن ليحصروا الحامية فيهِ ويضطروها الى التسليم وجاءتهم الاسلحة من اثينا بالمال الذي اخذهُ ديموستنس من الفرس . وبعثت اثينا الدعاة ليطوفوا في كل انحاء البلاد و يدعوا الناس الى الثورة و بحضهم على مناهضة المكدونيين خفافًا وثقالاً . ونفرت الجنود من كل الانحاء

(١) لسيديمونيا اسم قديم لاسبرطة

واستعدّت للقتال فاضحت مملكة الاسكندر على شفا جرف هارٍ وهو على ثلثمئة ميل منها في جبال البريا. فلما بلغهُ الخبر الوى عنان جواده واستحث جنودهُ نهارًا وليلاً في السهل والوعر والجبال والوهاد ولم يقضِ عليهِ سبعة ايام حتى صار على مقربة من تريخالا وقطع مسهل تساليا ومرَّ في مضيق دومكو ودخل بلاد اليونان فجأة حتى لم يصدق رؤساء الثورة انهُ الاسكندر بل قالوا انهُ من قوادهِ او انهُ رجل آخر مسمًّى باسمهِ

وكان في طيوة اربعون الف نفس وهي في سفح سلسلة من الآكام على ثلاثة ينابيع كبيرة وفي جانبها الشرقي الجنوبي اكمة عليها الحصن وبقربهِ الباب المتجه الى اثينا. وكان اهلها على جانب عظيم من الثروة ورفاه العيش وفيها كثير من الهياكل ولكنها لم تبلغ مبلغ اثينا في فخامة هياكلها وحسن بنائها. ولا اتصف اهلها بالذكاء والنباهة كالاثينيين. ولما صار الاسكندر على مقربة منها لم يشأ ان يهاجمها ويفتحها عنوةً بل فضَّل ان يراهُ اهلها فيندموا على ما فرط منهم ويعودوا الى الطاعة من تلقاء انفسهم لكن قوادهُ لم يكونوا على جانب من التؤدة مثلهُ واتفق ان قائدًا منهم كان في طليعة الجيش فناوشهُ اهل طيبة فاستنجد بالذين وراءهُ ونشب القتال بين الفريقين وردَّ اهالي طيوة جنود الاسكندر في اول الامر فاضطر ان يهاجمهم بفيلقهِ فهربوا من وجههِ ودخلوا المدينة فتبعهم قبل ان يقفلوا ابوابها ووضع السيف فيهم وخرجت الحامية من الحصن وعاونتهُ عليهم فلجأوا الى ساحة المدينة وهياكلها لكنهم لم يقووا على صدهِ فالتحم فيهم وقتل منهم ستة آلاف نفس ونهب رجالهُ المدينة وامر فهدمت الى اسسها الا بيت بنداروس شاعر اليونان الشهير. وبقي من السكان نحو ثلاثين الفًا فسباهم كلهم وباعهم عبيدًا ما عدا الكهنة والكاهنات الذين من بيت بنداروس. وبنيت طيوة بعد ذلك سنة ٣١٦ قبل الميلاد ولكنها لم تبلغ شيئًا من عظمتها الاولى وليس فيها الآن سوى اربعة آلاف نفس

ولما علِم ما فعلهُ الاسكندر بطيوة وسكانها ارتعدت فرائص اليونان وايقنوا بالهلكة وتخلَّى عنهم الذين وعدوهم بالنجدة. ولجأ اهالي القرى الى اثينا ليعتصموا بها واستولى الاضطراب على اهلها فنزعوا مقاليد الاحكام من يدي ديموستنس واعطوها لخصومهِ وارسلوا وفدًا الى الاسكندر ليهنئهُ برجوعهِ سالمًا ولتغلُّبهِ على طيوة فاشمأز من خطابهم وريائهم ومزَّق الخطاب الذي رفعوهُ اليهِ وصرف وجههُ عنهم. لكنهم لم ينصرفوا بل تذللوا لديهِ حتى سمح لهم ووعدهم بالصفح عن المدينة ان هم سلموهُ زعماء الثورة وخص منهم ديموستنس وليكرغس وبوليكتس وديمون وكاليستنس وغيرهم. فلما عادوا واخبروا الاثينيين بهذا الطلب استعظموهُ جدًّا وحسبوا انهُ اكبر اهانة يمكن ان تلحق بهم لكنهم نظروا من الجهة الاخرى الى ما حلَّ بطيوة ورأوا

انهم وقعوا في ورطة لا يستطيعون التخلص منها وكان عندهم قائد شيخ شهير مرعي الجانب مسموع الكلمة اسمهُ فوشيون فقال لهم لا بد من تضحية البعض في مصلحة الكل. فجعل ديموستس يلومهم على ذلك ويستنصر بمروءتهم وشهامتهم وذكّرهم بمثل الذئاب التي وعدت الغنم بالحماية والمصافاة ان سلمتها الكلاب التي تحميها. وقال لهم انتم مثلكم في ذلك مثل بائع السلطة الذي يضع مصطرة في كفهِ ويبيع حنطتهُ كلها بها. وبعد جدال طويل في هذا الموضوع اتفقوا على ارسال وفد آخر الى الاسكندر يطلب منهُ ان يعاملهم بالرحمة ويعفو عن الرجال الذين ظلمهم وانهم هم يحاكمونهم حسب شريعة بلادهم فان وجدوهم يستحقون العقاب عاقبوهم حسب منطوق الشريعة. وجعلوا فوشيون رئيساً لهذا الوفد فقضى وتوفّد الى الاسكندر جهدهُ وقال لهُ خليق بك ايها الملك ان تعود لمحاربة البرابرة وتبقي لك في انتدهُ اليونان خير ذكرى. فاجابهُ الاسكندر الى ما طلب وعفا عن الاثينيين وسائر المدن اليونانية واحبط مساعي الفرس كلها فلم يبقَ عليهِ الاَّ الزحف على آسيا

ولما حوّل الاسكندر نظرهُ نحو المشرق كانت السيادة للفرس من حدود الهند الى حدود اوربا ومنشأ هذه السيادة كورش الفارسي الذي نشأ في اواسط القرن السادس قبل الميلاد فانهُ ظهر حينما كانت تلك البلاد مقسومة الى ثلاث ممالك كبيرة وهي مملكة مادي التي قامت على خرائب نينوى وكانت عاصمتها اكباتانا المعروفة الآن بهمذان على قول وبلخ سليمان على قول آخر. ومملكة بابل وكانت تشتمل على ما بين النهرين وسورية. ومملكة ليديا في آسيا الصغرى وهي مملكة كريسوس او قارون المشهور بالغنى

والفرس ايرانيون من الاصل الذي منهُ اكثر شعوب اوربا وكانوا يسكنون بلاداً جبلية في بلخ وشمالي بلاد فارس وارتحلوا منها جنوباً وغرباً ونزل فرع منهم وهم الماديون على مملكة اشور فدانت لهم ثم ظهر كورش وتغلّب عليهم سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وجعل قصبتهُ همذان وبعد اربع سنوات تغلّب على كريسوس ملك ليديا وقبض سرديس عاصمتهُ ثم اجتاح مملكة بابل فتم لهُ الغلب على ممالك المشرق الثلاث

وكان الفرس الى ذلك العهد اهل عزلة وشدة مثل اكثر اهالي الشمال لا يعرفون الترف ولا يعبأون بالملاذ وكان كورش شهماً كريم النفس رضي الاخلاق كما يظهر مما كتبهُ عنهُ الفرس الذين سلّطهم على ممالك المشرق واليهود الذين حرّرهم من نير البابليين واليونان الذين امتلك بلادهم. فكان يضرب المثل بعفوهِ عمن يقهرهُ من اعدائهِ وصفائهِ الى مشورة الصادقين من مشيريهِ وابقائهِ على شرائع الامم التي تغلّب عليها. وكان في عقيدتهِ ايرانياً من اتباع

امورا مزدا ولكنهُ لم يحاول نشر هذه العقيدة في البلدان التي دانت لهُ بل ابقى لكل بلاد عقيدتها وساعدها على الجري بموجبها ولذلك قال عنهُ عزرا النبي ان روح الرب نبههُ ليبني لهُ بيتاً في اورشليم

وتقلب ابنهُ كمبيسس او قمبوسس على مصر وضمها الى مملكتهِ وكان عازماً على غزوة قرطاجنَّة لكن الفينيقيين ابوا ان يسيروا اليها في سفنهم فيكونوا لهُ عوناً على اخوانهم. وبلغهُ ظهور الثورة في بلادهِ فعاد اليها لكنهُ مات في الطريق من جرح جُرح بهِ عَرَضاً وكان قد قتل اخاهُ لكي لا يناظرهُ فقام رجل يشبههُ ادَّعى انهُ اخوهُ المقتول واستولى على سرير الملك وحينئذٍ قام داريوس الماديّ وهو اقرب وريث الى كمبيس فقتل الدعيَّ وانصارهُ واخمد الثورات التي ثارت على اثر ذلك فدانت لهُ البلاد كلها من بوغاز القسطنطينية غرباً الى بلاد الهند شرقاً ومن نهر سيحون شمالاً الى اطراف مصر العليا جنوباً فكانت مملكتهُ تشمل تركستان وافغانستان وبلاد العجم وبلاد الدولة العلية في اسيا واوربية

وكان داريوس عظيم الشوكة حسن السياسة تمهَّد لهُ الملك ٣٥ سنة فعدل في الرعية واحكم الروابط بين اقسام مملكتهِ لكن مملكتهُ كانت الحلقة الاخيرة من حلقات مجد المشرق وقد قام بعدها ممالك عظيمة وملوك عظام فمنها اقسام المشرق واستولوا على جانب من المغرب كما فعل بعض بني امية وبني العباس لكن البلاد لم تتمَّ في عهدهم نموَّ طبيعياً تفوق بهِ ما كانت عليهِ قبلاً بل كانت اذا استثنينا فيها الامن تحاول استرجاع مجد السلف فتشيد آثارهم بانقاضهم وتبني صروح مجدها على اطلالهم. ألا ترى ان نصارى المشرق بنوا كنائسهم من انقاض اهياكل ومعابد بنوا مساجدهم من انقاض الكنائس وكل ما نشأ في هذه البلدان بعد خراب مملكة داريوس لا يقابَل بما نشأ فيها في عهد المصريين والاشوريين والبابليين كأن القوة الحيوية التي تكون في الشعوب كما تكون في الافراد بلغت غايتها في ذلك العهد ثم انتقلت الى اليونان والرومان واتَّصلت منهم الى ممالك اوربا الحديثة بعد ان زارت العرب ونزلت عليهم نزول الضيف المرتحل . وما من امة زايلتها هذه القوة الحيويَّة ثم عادت اليها

ودامت مملكة داريوس نحو مئتي سنة وبقيت على الخطة التي خطها لها كورش اي كان في اجزائها ما تسميهِ الآن بالاستقلال الاداري مثل كندا واستراليا بالنسبة الى بريطانيا العظمى. ولو استطاع كورش وداريوس وخلفاؤهما ان يوحِّدوا المملكة ويجعلوا لها لغة واحدة وحكماً واحداً ونقود على العدل والبر بالرعية لقاومت دولتهم نوائب الدهر وكنا نراها الآن اعز من بيت الاسد ولكنهم لم يفعلوا ذلك وغاية ما استطاع داريوس فعلهُ انهُ سار في خطة كورش

فابقى لكل امة شرائعها واحكامها وعقائدها وحكّامها وضرب عليهم الجزية واخذ منهم الجنود. وقسم البلاد كلها الى عشرين ولاية او مملكة اقام في كل منها مرزبانًا من قبله لحفظ الامن وجمع الخراج وتعبئة الجنود ومشاركة الاعمال العمومية كالسكك والترع والمراقىء. وكان هؤلاء المرازبة يحكمون في كل المسائل التي ترفع اليهم حكمًا باتًا لا يقبل الاستئناف. ولم تقصر سلطتهم الاّ عن الحصون والمواقع الحربية فان ادارة حاميتها بقيت في يد رؤساء خوفًا من استفحال امرهم. وكان لهُ عيون يتجسسون احوال المملكة دواماً ولهم رئيس سلطتهُ فوق سلطة المرازبة والقواد فيرفع اليهِ كل ما يراهُ هؤلاء العيون من اعمال المرازبة والحكام والرعية. وكان لهُ ايضاً فريق آخر من الرقباء يسمون بالآذان كانهم يتلقون آذانهم لسماع كل ما يقال في المملكة وينقلهِ اليهِ فكان يراقب احوال المملكة كلها بعيونهِ واذانهِ

ورأى ببداهتهِ ان تلك المملكة الوسيعة لا تساس على ما يرام ما لم تمهَّد سككها لسير الجنود وينتظم فيها البريد لورود الاخبار اليهِ في اوقاتها. فانشأ السكك الكبيرة وبنى فيها خانًا على كل مرحلة (١٤ الى ١٥ ميلاً) كانت الخيل تقيم فيهِ بانتظار البريد فاذا ورد يهِ ساع استلمهُ منهُ ساعٍ آخر وعدا بجواده الى الخان التالي فيسلمهُ الى الساعي الذي فيهِ وهلمَّ جرًّا

وكانت السكك كلها حربية لا يمرُّ فيها احد ما لم يقُلْ مَن هو وما غرضهُ اينما سُئل. وكانت المسافات مقيسة كلها بالضبط ومكتوبة على جوانب السكك

ومن اشهر هذه السكك سكة تمتد من سردس عاصمة ليديا في الطرف الغربي من اسيا الصغرى الى شوشن عاصمة بلاد الفرس طولها الف وخمس مئة ميل فاذا سار الانسان فيها سيرًا عاديًّا لم يقطعها في اقل من ثلاثة اشهر اما خيل البريد فكانت تقطعها في اسبوع من الزمان. وكان فيها خان للمسافرين على كل خمسة عشر ميلاً كما تقدَّم وقد نزل هيرودوتس المؤرخ في هذه الخانات وقال انها من احسن ما يكون

وكانت الولايات تقوم بنفقات حكامها وجنودها ومرازبتها وتدفع الى خزينة الملك اكثر من مليونين من الجنيهات كل سنة عدا جزية العين من حاصلات البلاد كالليان والعبيد والعسل والتمر وعدا ايجار ما يسمَّى الآن بالمصالح ذات الايراد كمصايد السمك فان ايجارها في السنة كان ٦٧ الف جنيه ولذلك لا يستغرب ما ذكرهُ المؤرخون من ان الاسكندر وجد في خزائن برسوليس ١٢٠٠٠٠ وزنة من الذهب والفضة فان كان ثلثها ذهبًا فقيمتها كلها ١٦٠ مليونًا من الجنيهات وان كانت كلها فضة فقيمتها ٣٥ مليونًا من الجنيهات. ووجد في خزائن شوشن ٥٠٠٠٠ وزنة او ١٤ مليون جنيه وبلغ سكان هذه المملكة الوسيعة على اقل تقدير خمسين مليونًا من النفوس

وبنى داريوس مدينة في سوس او شوشن وجعلها عاصمة مملكته وكان محيطها نحو ١٣ ميلاً وهي على ٢٥٠ ميلاً من بابل شرقاً وبنى مدينة اخرى في برسبوليس وهي الى الجنوب الشرقي من شوشن وتبعد عنها ٣٠٠ ميل وحصنها تحصيناً منيعاً وسورها بثلاثة اسوار ارتفاع الداخلي منها ٩٠ قدماً. وكان اذا اشتدَّ حرُّ الصيف يلجأ الى همذان قصبة الماديين القديمة . الاَّ ان شوشن كانت القصبة الرسمية لملوك الفرس

وكان بلاط هؤلاء الملوك محفوفاً بالعظمة والمهابة فكان الملك منهم يجلس على عرش من الذهب الابريز فوقهُ قبة ارجوانية على عمد من الذهب مرصعة بالجواهر يحيط به رجال حاشيته من الحراس والغلمان والخصيان والوزراء واذا دنا منهُ احد جثا على ركبتيه اولاً وعفر ثم وقف واخفى كفيه في ردنيه. وكانت حلتهُ تساوي ١٢٠٠٠ وزنة اي نحو ثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات . وكان عندهُ كثير من النساء والسراري فقد وُجد في شوشن عند ما فتحها الاسكندر ٣٢٠ سرية من سراري داريوس الثالث

وتوفي داريوس الاول سنة ٤٨٦ فانتقلت مملكتهُ الى اعقابه وفيها من حسن الانتظام ما حفظها من الاضمحلال — حفظها بقوة الاستمرار لا بقوة حيوية تحيي جسم الامة وتزيد ارتقاءها . وقوة الاستمرار لا تدوم بل يعتريها الضعف رويداً رويداً بما تتلقاهُ من المقاومات ولذلك كانت قد بلغت غاية الضعف لما تولاها داريوس الثالث وقام الاسكندر لفتحها كما سيجيء

---

ورجعنا بعد هذا البيان الوجيز الى كتب العرب فلم نرَ فيها شيئاً عن غزوات الاسكندر التي ذكرناها هنا . ووجدنا كلاماً كثيراً عن ملوك الفرس الاقدمين لكنهُ مشحون بالاغراض والسخائف وهو لا ينطبق على المكتشفات الحديثة ولا على ما ذكرهُ المؤرخون الاقدمون. ولا ينتظر من مؤرخي العرب ان يعرفوا ما اخطأ هيرودوتس فيهِ ولكن ما كتبهُ هيرودوتس مفهوم وتظهر عليهِ آثار التاريخ واما ما كتبوهُ فلا يظهر عليهِ ذلك الاَّ ما نقلهُ ابن خلدون عمَّن سماهُ هروشيوش مؤرخ الروم فقد جاء فيهِ ما ملخصهُ "ان كيرش (كورش) الذي يقال لهُ كسرى الاول زحف على بابل وحارب السريان فهلك في حروبهِ وولي ابنهُ قنبيشاش فأثَّر منهم بابيهِ وتخطاهم الى ارض مصر فهدم اوثانهم ونقض شرائعهم فقتلهُ السحرة وولي امر الفرس دارا وزحف الى بلاد الروم الغربيين". ثم ذكر اسماء ملوك الفرس الذين خلفوهُ مثل دارا انوطر (نوثوس) وارتشجاراوفش (ارتكسركسس اوخس) وكتبهُ قال ان الاسكندر تغلب على دارا نوطو والحقيقة انهُ تغلب على داريوس كودومانوس وهو داريوس الثالث